البحـر الأبيـض
قبيل ظهـور الإســلام
١

عندما ظهر الإسلام وأخذ يفسح لنفسه مكاناً فى عالم القرن السابع الميلادى ، كان البحر الأبيض المتوسط بحيرة داخلة فى النطاق السياسى والحضارى للعالم الرومانى ؛ ولا يقلل من قيمة هذه الحقيقة أن ذلك العالم الرومانى كان إذ ذاك منقسما بالفعل إلى قسمين : شرقى يغلب عليه الطابع الإغريقى ، وهو المعروف بالبيزنطى ، وغربى تقاسمه الغزاة الجرمان فيما بينهم ، وأقاموا فيه دولا تحاول جهدها أن تجمع فى كيانها بين تقاليدها الجرمانية الأولى ، وما وجدته فى النواحى التى قامت فيها من عناصر الحضارة الرومانية وتنظيماتها ، ويحرص ملوكها على أن يظهروا بمظهر المواصلين لحضارة روما ونظمها وتقاليدها . فلم يفقد البحر الأبيض طابعه الرومانى على الرغم من هذا التفرق ، وإذا كانت الوحدة السياسية التى كانت تجمع أطراف هذا البحر إلى لواء واحد وتسيرها فى اتجاه واحد قد زالت ، فقد حل محلها رباط لا يقل قوة : هو المسيحية التى سادت شواطىء هذا البحر جميعاً ، وسيرت أهلها أجمعين فى اتجاه عقلى روحى متقارب تقارباً شديداً .

أ ــ مظاهر بقاء وحدة حوض البحر الأبيض بعد الغزوات الجرمانية :

ولقد كان من مفارقات التاريخ أن المسيحية التى عاداها العالم الرومانى وتجرد للقضاء عليها زمناً طويلا ، كانت من أسباب تثبيت معالم الحضارة الرومانية فيما انتشرت فيه من البلاد ؛ لأن رجال الكنيسة فى الشرق والغرب نشطوا ــ بعد صدور مرسوم ميلان فى فبراير ٣١٣ ــ فى تنظيم دولة الكنيسة متخذين النظام الإدارى الرومانى القديم أساساً للتنظيم الكنسى ، فأقاموا الكنائس الجامعة ــ الكاتدرائيات ــ بين أطلال المدن الرومانية الدارسة ، وأقاموا فى كل كنيسة جامعة أسقفاً يشمل سلطانه زمام «السيفيتاس الرومانية» القديمة Civitas Romana ، ومن هنا ظهرت مكان الخريطة الإدارية الرومانية خريطة كنسية تنطبق حدودها وخطوط تقسيمها على الخريطة الرومانية الإدارية القديمة وورثت الأسقفيات الناشئة الأهمية السياسية التى كانت للمدن الرومانية أو الهيلينية التى قامت فيها . ومن هنا أصبحت المدائن الرئيسية فى العالم الرومانى الذاهب مراكز أساسية فى العالم المسيحى الناشىء ، واحتفظت روما والقسطنطينية وأنطاكية والإسكندرية وتريف وميلان وغيرها فى ذلك العالم الرومانى المتنصر بأهمية دينية روحية تعدل ما كان لها من أهمية اقتصادية وإدارية فى العالم الرومانى الوثنى الذاهب ، واحتفظت المدن الرومانية الثانوية بأهميتها النسبية فى العالم الجديد كذلك .

واجتهدت الكنائس فى نشر المسيحية ومد حدودها فى نواح لم تكن الحضارة الرومانية قد وصلتها ، وأنشأت فيها الأسقفيات على النظام الكنسى الرومانى ، وقام فيها الأساقفة والقسوس يقرءون الكتاب المقدس والكتب الدينية باللغة اللاتينية ، ويعلمون الناس هذه اللغة ؛ ونشأت الأديرة وغنيت بالرهبان والديارين ممن يقرأ اللاتينية ويكتبها ويعلمها فى نواح لم تدخل فى نطاق الحضارة اللاتينية أيام أوج الدولة الرومانية نفسها .. أى أن نطاق

الحضارة الرومانية زاد فى العمق والعرض ، وزاد الطابع الرومانى غلبة على حوض البحر الأبيض من جميع نواحيه .

وهذا الكلام ينطبق أيضاً على الدولة الرومانية الشرقية التى عُرفت بالبيزنطية . حقيقة أن اللغة اللاتينية لم تكن تُستعمل هناك إلا فى شئون الدولة ، وأن اليونانية غلبت هناك كلغة للتخاطب والثقافة والكنائس ورجال الدين ، ولكن الدولة كانت تعتبر نفسها رومانية ، بل «الدولة الرومانية» الجديرة بهذا الاسم ، ولم يتنازل أباطرتها — إلى أيام شارلمان — عن تفهم فى سيادة الدولة الرومانية كلها بحدودها القديمة .

ولم تكن الكنيسة هى العامل الوحيد على بقاء هذه الوحدة بين بلاد البحر المتوسط ، بل إن عناصر الحضارة والتنظيم الرومانية كانت من القوة والثبات بحيث لم تغير الغزوات الجرمانية وتغير الأوضاع السياسية منها إلا قليلا ، فقد ظلت الأراضى تزرع وتستثمر على الأسس التى جرى بها العمل على أيام الرومان : ظل الزراع الأصليون فى أماكنهم يزرعون أرضهم كما كانوا يفعلون قبلا ، وإن كانوا قد أصبحوا يؤدون الضريبة إلى سيد جرمانى ، وظلت «الضياع» Villae الواسعة على حالها كما كانت أيام الرومان دون تغير فى الوضع أو النظام ، بل ظل مالكوها القدماء على حيازتها يعهدون فى استثمارها إلى ملتزمين Conductores يؤدون إليهم أموالها ثم يجمعونها من الزراع ، وفى ذلك يقول هنرى بيرين : «ومن ناحية أخرى ظل نظام حيازة الأرض الرومانية دون تغيير حقيقى ، وإن سمى فى بعض الأحيان « إقطاع ارتفاق Precarium » وفى بعضها الآخر « إقطاعاً فى مقابل خدمة Benefrciurr » . وصور حيازة الأرض التى تصادفنا إذ ذاك تدلنا بوضوح على بقاء النظم القديمة ، فهى فى مجموعها تكون نظاماً عاماً لحيازة الأرض لا يختلف فى شىء عن النظام الرومانى . وظل نظام الملكيات العقارية الواسعة كاملا ، وقد أخذ الجرمان بهذا النظام ، حتى ليحدثنا جريجوريوس التورى Gregoire de Tours عن رجل (جرمانى) يسمى Chrodinus ، ينشىء ضياعاً

Villae ويغرس كروماً ويبتنى دوراً وينظم زراعات ليقدمها إلى الأساقفة»[1] ...

وخلاصة هذا الكلام : أن الإسلام عندما بدأ يتوسع ويمتد خارج الجزيرة العربية ، وعندما وصلت طلائع جيوشه إلى حدود الدولة البيزنطية جنوبى الشام ، وجدت نفسها أمام عالم رومانى لاتينى زادته المسيحية سعة وعمقاً وإيغالا فى الطابع اللاتينى وحضارته .

غلب الطابع اللاتينى — إذن — على البلاد المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط جميعاً والجزر الواقعة فى حوضيه الشرقى والغربى ، وساد الموانى الواقعة عليه طابع واحد متشابه ، نجده فى القسطنطينية وسالونيك وإيفيسوس وأنطاكية وصور والإسكندرية ورافنا وبيزا وجنوا ومرسيليا وطرَكونة وسبتة وبونة وقرطاجنة وسرقوسة وغيرها ، حتى كان المسافر ينتقل بين موانى هذا البحر — فى الشرق والغرب ، أو فى الشمال والجنوب — دون أن يشعر بتغرب أو ابتعاد عن الجو العام الذى عاش فيه وألفه . واستمر نشاط التجارة بين ثغور ذلك البحر ، على رغم سيطرة الجرمان على الكثير من شواطئه وانتشار القراصنة فى الكثير من أحواضه .

وهذا الإحساس بالطابع اللاتينى عند رجال الكنيسة هو الذى حرك فى نفوسهم الطموحَ إلى السلطان ، على اعتبار أنهم الوارثون الروحيون للعالم الرومانى الذى انتقل إلى رحاب المسيحية ، وهو الذى حفز البابوات والكرادلة واحداً بعد واحد إلى الاجتهاد فى بناء دولة الكنيسة ومد أطرافها وتأثيل سلطانها حتى تحل محل الدولة الرومانية الذاهبة ، وحتى يصبح البابا رأسها السيد الفعلى للعالم كله ، ومن ثم بدأ البابوات والأساقفة وشتى رجال الكنيسة يتعاطون السياسة ويسهمون فى شئونها[2] ، وهدفهم الأخير تجديد الوحدة الرومانية تحت طيلسان البابوية .

(١) Henri Pirenne: Mahomet et Charlemagne (2e. éd. Paris-Bruxelles, 1937), pp. 58-61.

(٢) H. St. L.B. Moss: The Birth of the Middle Ages 394-814, (Oxford, 1935), P. 33.

ب ــ الناحية الاقتصادية :

ولم تكن الدولة الرومانية ذات عناية خاصة بالبحرية التجارية : لم تكن روما ميناء ، فكانت السفن التى تقصدها ترسو فى ميناء صغير قبالتها على البحر هو «أوستيا» ، ولم يكن اللاتين أهل بحار ، ولم تكن الأجزاء الغربية تنتج محصولات أو مصنوعات تصدر إلى الخارج فى كميات تستدعى العناية والتنظيم ، بل كانت إيطاليا الرومانية تعتمد على ما يرد إليها من الخارج من المحصولات والمصنوعات اعتماداً عظيما ، ومن ثم كان معظم اهتمام أهل موانيها بإعداد ما يستطيعون المبادلة عليه من الأشياء ــ كالأخشاب والحديد والقصدير والفراء ــ ليحمله التجار المقبلون من بعيد ، مقابل ما يأتون به من قمح وزيت ونسيج وعطور وبخور وبردى ؛ وكلها منتجات شرقية أو إفريقية ، كان تجار المشارقة يحملونها إلى ثغور الغرب .

وقد قام بعبء هذه الملاحة البحرية أهل سواحل الشام ، وهم المعروفون فى نصوص ذلك العصر بالسوريين Syroe ، فقد كانوا على طول الأعصر الرومانية ، وحتى منتصف القرن السابع الميلادى ، حملة النصيب الأكبر من عبء التجارة فى البحر الأبيض المتوسط ، وكانت لهم جاليات متاجرة فى كل موانى هذا البحر وفى الكثير من البلاد الهامة فى الداخل ، وقامت هذه الجاليات حتى فى ثغور بريطانيا وغالة وإسبانيا ، بل فى الثغور النهرية على الدانوب . وكانت هذه الجاليات السورية كثيرة العدد عظيمة الثروة ، فتحدثنا نصوص القرن السادس الميلادى أن سكان أربونة (نربون) مثلا كانوا يتكونون من الرومان واليهود والإغريق والسوريين[1] ، ويذكر الرواة أخبار رجال سوريين فى ثغور غالة وبلادها كانوا يملكون الضياع والقصور ويبتنون البيع ، وقد يذكرون فى النصوص باسم «المشارقة» إلى جانب اليهود

---

(١) H. Pirenne, op. cit. p. 63.

والإغريق ، وبين أيدينا نص يرجع تاريخه إلى حوالى ٥٧٠ ميلادية ، يذكر وفود عدد عظيم من تجار الإغريق والمشارقة على ماردة Emerita فى البرتغال الحالية[١] .

وشارك السوريين فى القيام بعبء التجارة البحرية الإغريق واليهود : فأما الأولون فنجدهم دائماً مذكورين إلى جوار السوريين ، أى أن جالياتهم الكبيرة كانت فى الثغور البحرية لغرب البحر الأبيض ، وأما اليهود فقد توغلوا فى الأرض وكثرت أعدادهم فى مدن الداخل أيضاً ، وكان لهم مركز كبير رئيسى فى مرسيليا ، ومنه كانوا ينتشرون فى حوض الرون وبلاد وسط غالة وشمالها مثل باريس وأورليان وكليرمون وتوروبورج وآرل . وقام اليهود بمهمة أخرى فى هذا الميدان : هى المتاجرة بين بلاد الداخل والانتقال بالمتاجر من مكان لمكان ، فكانوا لهذا يوجدون فى كل المدن والمواضع الواقعة على الطرق البرية ، وكانت لهم لهذا السبب علاقات موصولة مع أهل البلاد ، وخاصة الملوك والأشراف والنبلاء ، وكانوا يحاولون الإقامة فى البلاد والاختلاط بأهلها ويجتهدون فى حصر أمور المال بين أيديهم ، وكان الناس ينفرون منهم ومن أساليبهم ، وكانت الكنيسة تجتهد فى تحويلهم إلى المسيحية ، وقد تحول إليها الكثيرون منهم بالفعل[٢] ، ولكن بقيت منهم دائماً جماعات ظلت محتفظة بعقيدتها وطابعها ، مسيطرة على شئون التجارة والمال فى عالم كان الطابع الزراعى يغلب عليه شيئاً فشيئاً .

---

(١) H. Pirenne, op. cit. pp. 62-63.

P. Charlesworth: Trade-routes and Commerce of the Roman Empire, (Cambridge, 2d. ed. 1926).

P. Scheffer-Boichorst: Zur Geschichte der Syrer im Abendllande ds. Mitteilungen des Oesterreichischen Institut fur Geschichtforschung. Band VI, 1885, S. 521 ff.

L. Brehier: Les colonies d'Orientaux en Occident au commencement du Moyen-Age dans Byzaht. Zeitschr. t. XII, 1933, pp. 1299.

(٢) H. Pirenne, op. cit. p. 16.

وإلى جانب السوريين واليهود والإغريق ، يذكر «بيرين» أنه كانت هناك من غير شك جماعات من الأفارقة (يريد المغاربة) يعملون فى نقل البضائع من إفريقية إلى ثغور غالة ، تسميهم المراجع «تجار من وراء البحر Transmarini Negociatores» ورد ذكرهم عند كاسيود وروس وفى قانون القوط الغربيين Liber Judiciorum Wisigoticorum ؛ وكانت قرطاجنة مدينة كبيرة ومرحلة يريح فيها التجار القاصدون إلى المشرق . ومن المحتمل أن تكون الجمال التى كانت تستعمل كدواب حمل فى غالة إذ ذاك قد أتت منها[1] .

وبفضل هذه الأجناس الأربعة المتاجرة : السوريين واليهود والإغريق والمغاربة ، ظل النشاط التجارى قائماً فى البحر الأبيض إلى نهاية القرن السابع الميلادى . كانت الحركة التجارية مستمرة بين ثغور البحر الأبيض فى الشرق والغرب والشمال والجنوب ، وكانت البضائع التى تحمل إلى موانى هذا البحر شرقية ؛ وقد أورد «هنرى بيرين» قائمة بأصناف من البضائع نص عليها مرسوم ملكى أصدره شيلبيريك Chilpéric الثانى من ملوك الميروفنجيين إلى كنيسة كوربى Corbie فى ٢٩ أبريل ٧١٦ يعفيها من دفع الرسوم المقررة عليها ، وهذه الأصناف هى :

١٠٠٠٠	»	رطل من الزيت
٣٠	»	الجاروم (صنف من الطعام)
٣٠	»	الفلفل
١٥٠	»	الكمون
٢	»	القرنفل
١	»	القرفة
٢	»	Nard

(١) H. Pirenne, op. cit. 68.

٣٠	« «	الكوستوم ، نبات عطرى
٥٠	« «	البلح
١٠٠	« «	التين
١٠٠	« «	اللوز
٣٠	« «	الفستق
١٠٠	« «	الزيتون
٣٠	« «	الهيدريو ، نوع من العطور
١٥٠	« «	الحمص الشامى
٢٠	« «	الأرز
١٠	« «	الفلفل الأحمر
١٠	« «	معالجة بالزيت
٥٠		ذراعا من البردى[١]

والغالبية العظمى من هذه الاصناف واردة من الشرق أو إفريقية ، مما يعطينا فكرة واضحة بعض الشيء عن أصناف المتاجر التى كانت السفن تنتقل بها بين موانى البحر الأبيض وبلاد الدولة الرومانية فى غرب أوروبا .

والنصوص كلها تنطق بأن نشاط هذه التجارة كان عظيما ، وأنها كانت تصل حتى مدائن حوض الرين الأدنى وبلجيكا وحوض الموزيل ، وأن سفن المشارقة كانت تحملها إلى موانى البحر الأبيض المتوسط ، حيث تقوم الجاليات الشرقية بحملها والانتقال بها من مكان لمكان . ولدينا ما يدل على أن أرباح التجار منها كانت عظيمة تغريهم باحتمال ما عسى أن يتعرضوا له من المخاطر فى سبيل نقلها .

---

(١) H. Pirenne, op. cit. pp. 71-72.
وراجع تعليقات بيرين على هذه الأصناف ومغزاها ، ص ٧٠ــ٧١ من كتابه الآنف الذكر .

وقد تبين هنرى بيرين من أبحاثه فى هذا الموضوع ، أن أهم ما كان التجار يحرصون على نقله من البضائع الشرقية كان ثلاثة أشياء : أولها التوابل ، وخاصة الفلفل . فقد كان الناس لا يستغنون عنه فى تهيئة طعامهم ، وكان المتطببون فى تلك الأيام يستعملونه دواء أو يدخلونه فى مركباتهم الطبية ، والشيء الثانى كان ورق البردى ، وكانت مصر مصدره الوحيد ، وكان البردى فى ذلك الحين هو المستعمل للكتابة عامة ، أما الرق (البرشمان) فكان لا يستعمل إلا فى كتابات الترف ، وكانت إدارات الدول فى حاجة إلى مقادير كبيرة من البردى وكذلك كان عامة الناس ، وإذا ذكرنا أن ديراً واحداً هو دير «كورنى» الذى ذكرناه كان يستهلك فى العام خمسين ذراعاً من البردى ، تصورنا مقادير البردى التى كانت تستنفدها بلاد غربى أوروبا فى ذلك الحين . وكان البردى يستعمل فى أغراض أخرى غير الكتابة : كانوا يدخلونه فى تركيب ذبالات مصابيح الزيت ، وكانت مقاديره فى كل بلاد غربى أوروبا من الكثرة بحيث كان الناس يلتمسون ما يحتاجون إليه منه فى الدكاكين دون مشقة . أى أن البردى كان يصدر من الإسكندرية فى مقادير كبيرة وبطريقة منتظمة ، وكانت مرسيليا ميناءه الكبرى فى أوروبا ، فكان تجار هذا الثغر يودعونه مخازنهم ليحمله التجار بعد ذلك إلى إيطاليا وغالة وإسبانيا وغيرها من بلاد غربى أوروبا ، والصنف الثالث هو الزيت ، وكان الناس فى غربى أوروبا كله يطهون به طعامهم ويستعملونه للمصابيح فى البيوت والكنائس . ولم تكن مقادير الزيت فى أوروبا بكافية ، فكانت تستورد منه مقادير ضخمة من بلاد المغرب خاصة ، وكان ينقل فى دنان كبيرة على ظهور المراكب . وقد لاحظ هنرى بيرين بهذه المناسبة أن النصوص تذكر أن بعض هذا الزيت وبضائع أخرى كانت تنقل فى بعض نواحى إسبانيا وغالة الجنوبية على ظهور الجمال ، واستنتج أن هذه الجمال هى الأخرى كانت تستورد من المغرب .

ويوجز بيرين كلامه عن نشاط حركة التجارة البحرية بين البلاد الشرقية

ونواحى غربى أوروبا بقوله : «.. من ذلك يتبين بصورة واضحة أنه كانت هناك حركة تجارية بحرية واسعة النشاط بين شواطىء البحر التيرانى وبين المشرق وسواحل المغرب . ويبدو أن قرطاجنة كانت همزة الوصل للتجارة مع المشرق . وكانت هناك ملاحة فرعية لنقل المتاجر بين موانى إيطاليا وبروفانس وإسبانيا ، وكان أهل الشمال الذاهبون إلى روما يركبون السفن من مرسيليا فتنقلهم إلى بورتو Porto على مصب التيبر . وكان الذاهبون إلى القسطنطينية يذهبون إليها بحراً ؛ لأن طريق البر كان مهدداً بجماعات المتبربرين ؛ ولهذا انصرف الناس عنه . وكانت هناك سفن منتظمة بين رافنا وبارى ، وربما كانت هناك ملاحة منتظمة بين مرسيليا وإسبانيا شبيهة بملاحة نقل البضائع ، وذلك يمكن استنتاجه من قول جريجوريوس التورى : Negatio Solito فى بعض كتاباته . وأظن أننا نستطيع القول إن الملاحة ظلت فى هذه النواحى على مثل ما كان من نشاطها أيام «الإمبراطورية» على أقل تقدير .

«وكانت البحار آمنة ؛ إذ أننا لم نعد نسمع عن القرصنة بعد أيام جريسريك الوندالى ، ومن البين الواضح أن تلك التجارة التى انصرف الناس إلى العناية بأمرها كانت تجارة جملة ، ومن المستحيل أن نشك فى ذلك إذا ذكرنا نوع تلك البضائع المستوردة وانتظامها والمكاسب الوافرة التى كان التجار يجمعونها منها . والميناء الوحيد الذى لدينا عنه معلومات وافرة هو مرسيليا ، ويتجلى من النصوص أنه كان ميناء كبيراً . ومن دلائل أهميته ما نرى من رغبة الملوك فى الاستحواذ عليه فى مناسبات تقسيم المملكة (الفرنجية) . كانت بلداً عالمياً يضم أعداداً كبيرة من اليهود السوريين ، إلى من كان فيه من الإغريق والقوط دون شك ... ولا بد أن البلد كان وافر السكان ، ولا بد كذلك أنه احتفظ بمنازله الكبيرة ذات الطبقات التى تشبه تلك التى لازالت أطلالها باقية إلى الآن فى أوستيا ..»[1] .

(١) H. Pirenne, op. cit. pp. 72-78.

وطبيعى أننا لا نستطيع القول بأن أولئك التجار المشارقة ــ يهوداً وغير يهود ــ (المقيمين فى غالة وغيرها من النواحى المطلة على البحر التيرانى) قد اقتصر عملهم على الاستيراد دون التصدير ؛ إذ من الواضح أن سفنهم كانت تحمل بضائع أخرى لدى عودتها ، وأهم ما كانت تحمله الرقيق ، ومن المعروف أن رقيق الخدمة فى البيوت والمزارع كانوا كثيرين جداً بعد القرن الخامس ، ويغلب على ظنى أن الغزوات الجرمانية زادت تجارة الرقيق نشاطاً وتجارها غنما ، فقد عرف الجرمان الرق كما عرفه الرومان ، ولا بد أنهم أتوا معهم بأعداد كثيرة من الرقيق ، وأعانت الحروب مع المتبربرين فيما رواء الرين ومع اللومبارد على اتساع مدى الرق ، وإذا كانت الكنيسة قد رفعت من منزلة الرقيق بالسماح لهم بحضور القداس ، واعترفت لهم بالحق فى الزواج ، أو بعبارة أدق : بإلزامهم به ، فإنها ــ من حيث المبدأ ــ لم تستنكر ولم تعترض على مبدأ الاسترقاق . ولهذا كان الرقيق يوجدون فى كل مكان ، لا فى الضياع الكبيرة وحدها بل لدى جميع الأفراد الميسورين . نعم إن الناس كانوا يعتقون الكثيرين منهم ، ولكن بقيت أعداد وفيرة دائما ، وكانت هذه الأعداد تزيد بواردات جديدة منهم[1] .

وقد أورد بيرين تفاصيل كثيرة عن تجارة الرقيق هذه ، وأثبت أن تجار المسيحيين الغربيين كانوا يقومون بغارات على بلاد الروس والوند ليحصلوا على الرقيق والفراء ويتاجروا فيه دون حرج ؛ لأن الكنيسة لم تكن تحرم بيع الرقيق لتجار من خارج العالم المسيحى إلا إذا كان الرقيق مسيحياً . وأثبت كذلك أن جريجورى الكبير اشترى سنة ٥٩٥ عدداً من الرقيق الإنجليز من مرسيليا وبعث بهم إلى روما لينصِّرهم فيها ، وأتى بنصوص أخرى من كتابات جريجوريوس التورى وفريجيداريوس ، ومن ذلك أن بيليشيلديس Bilichildts التى تزوجها الملك تيودبرت ــ كانت أول الأمر جارية اشترتها

---

(١) H. Pirenne, op. cit. p. 79.

برونهاوت بسبب جمالها الظاهر ، أى أن ملوك العالم النصرانى كانوا إذ ذاك يفعلون ما كان ملوك المسلمين يفعلون . وأثبت كذلك أنه كانت فى بلاد المسيحية أسواق يباع فيها الرقيق ، وأن أكبر هذه الأسواق كان فى أربونة Narbona ونابلى ، وأن معظم المشتغلين بهذه التجارة كانوا من اليهود ؛ وهو هنا يلتقى بالمؤرخ المعروف راينهارت دوزى فيما ذهب إليه من أن أكبر موردى الرقيق لمسلمى إسبانيا كانوا من اليهود ، وأنه كانت لهم فى أربونة هذه مواضع يقومون فيها بخصاء أعداد من هؤلاء المساكين لبيعهم للمسلمين خصياناً بعد ذلك[1] .

وبعد الاستشهاد بأمثلة كثيرة ، خرج بيرين بأن التجارة كانت على نشاط وافر فى غربى أوروبا حتى نهاية العصر الميروفنجى ، وأن التجار كانوا يعتمدون فى هذا النشاط على ما يرد إليهم من بضائع المشرق والشمال الإفريقى إلى جانب ما كانوا يتجرون فيه من محصولات بلادهم ومنتجاتهم كالنبيذ والغراء ، وأن التجار كانوا كثيرين استطاع بعضهم أن يجمع ثروات عريضة ، بل كان بعضهم يقرض الملوك المال فى بعض الأحيان[2] ، وأنهم كانوا تجاراً أحراراً أى لا تقيدهم نظم نقابات أو أثقال من الدولة ، وأنهم كانوا يوجدون فى كل البلاد الهامة إيطاليا وغالة وبلاد الرين ، وأنهم كانوا يسكنون داخل المدن وفى قصباتها oppidum livitatis بالذات ، ويتخذون الدكاكين الصغيرة والكبيرة فى شوارع طويلة ذات بواك فى كثير من الأحيان ، كما فى مدينتى Meaux فى شمالى غالة وفى باريس[3] .

---

(١) H. Pirenne, op. cit. pp. 79-81.

ويفهم من بعض النصوص التى أوردها نقلا أن الرقيق الذين وجدوا فى غرب أوروبا فى ذلك الحين لم يكونوا من الصقالبة والوند فقط ، بل كان فيهم غاليون وبريطانيون وسكسون ومغاربة . انظر ص ٨١ وهوامشها والمراجع المذكورة فيها . وكان الرقيق يذكرون عادة فى النصوص تحت بند البهائم De bestus تارة والأشياء تارة أخرى ، فيقال مثلا فى بعض اللوائح الجمركية Si servus vel ancilla vel auri uncia vendantur انظر هامش ٧ من ص ٨٠ من كتاب بيرين المذكور .

(٢) انظر النص اللاتينى الذى يورده بيرين فى ص ٨٢ من كتابه المشار إليه .

(٣) بيرين ، ص ٨٥ ، وانظر النصوص التى ينقلها عن جريجوريوس التورى على هذه الصفحة وهوامشها .

ومن الطبيعى أن التجارة فى غربى أوروبا لا تنشط هذا النشاط دون عملة معدنية يعرفها التجار ويتبادلون البضائع على أساسها ، وقد كانت هذه العملة على أيام الغزوات الجرمانية هى الصولدى الرومانى Solidus كما حدد وزنه وثبته قسطنطين الكبير ، وقد ظل هذا الصولدى أساس التعامل حتى منتصف القرن السابع الميلادى دون أن يغير ملوك الجرمان من وزنه أو قيمته أو رسمه شيئاً ، بل مضى هؤلاء الملوك يسكونه بنفس الطرة التى وجدوها عليه عندما أقاموا دولهم ، ولم تتغير هذه الطرة إلا على أيام الملك الميروفنجى كلوتير الثانى (٥٨٤ــ٥٢٩ أو ٥٣٠) ، ولم يكن التغيير إلا جزئياً فاستبدلت عبارة Victoria Augustorum بعبارة Victoria Chlotarii .

ولقد كانت عملة الدولة الرومانية من معدن واحد ، هو الذهب ، فلم تسك فيها عملة الفضة أو البرونز ، وقد حافظ ملوك الجرمان على هذه القاعدة ، فلم يسكوا عملة الفضة إلا فى بعض الممالك الأنجلوسكسونية فى الجزر البريطانية ، فقد سك ملوك مرسيا مثلا عملة فضية ، أما عند الفرنجة والقوط الغربيين والقوط الشرقين والوندال فلم يكن هناك إلا ذلك الصلدى الرومانى بوزنه المعروف . بيد أن بعض الميروفنجيين أنقص وزنه من ٢٤ جراماً إلى ٢١ ، وذلك هو الصلدى الغالى Solidi Gallicaoi ؛ وقد كان هذا الصلدى يسك تحت إشراف الدولة ، ولهذا كان عياره يوصف بأنه «عيار الخزانة» ratio fisci أو عيار الحاكم[1] ratio domini . وقد سك الأساقفة الصولدى تحت إشرافهم ، ولسنا نعرف إن كان ذلك بإذن من الملوك أو بدون إذن ، ولكن الثابت أن وزنه كان صحيحاً[2] .

وهذه الحقيقة تدل على أمرين : أولهما أن الوحدة الاقتصادية لحوض البحر الأبيض ظلت قائمة بعد غزوات المتبربرين كما كانت عليه قبل

---

(١) نفس المرجع ، ص ٩٠ــ٩٢ .
(٢) نفس المرجع ، ص ٩٣ .

دخولهم ، «وحتى حلول الكارثة التى ألمت بغربى أوروبا من أول العصر الكارولنجى ، ظل الجزء الشرقى ــ أى الإغريقى ــ من الدولة والجزء الغربى ــ الذى أغار عليه الجرمان ــ يتعاملان بالعملة الواحدة التى كانت أساس التعامل على أيام الإمبراطورية الرومانية ؛ وكان التجار السوريون لدى نزولهم فى موانى البحر التيرانى يجدون نفس العملة التى اعتادوا عليها فى بحر إيجه . بل إن ملوك المتبربرين أدخلوا على العملة فى بلادهم نفس التعديلات التى أدخلها الأباطرة البيزنطيون ، فقد أدخل هؤلاء الأخيرون مثلا رسم الصليب على الصولدى ابتداء من القرن السادس ، فحذت دار السكة فى مرسيليا حذوهم فى ذلك وتبعها فى ذلك دور السكة فى شتى نواحى غربى أوروبا»[1] .

أى أن وحدة البحر الأبيض ظلت قائمة فى الناحية الاقتصادية كما ظلت فى النواحى الأخرى التى بيناها .

وقد لخص هنرى بيرين هذا الكلام كله ــ عن بناء وحدة البحر الأبيض حتى دخول الإسلام ــ فى كتاب آخر من كتبه بقوله : «ومن الزاوية التى يتعين علينا النظر منها هنا ، يبدو لنا لأول وهلة أن ممالك المتبربرين التى قامت فى أوروبا فى القرن الخامس قد احتفظت بذلك الطابع البحرى المتوسطى الذى يعتبر أوضح وأهم أسس الحضارة القديمة . فإن ذلك البحر الأبيض ، ذلك البحر الداخلى الذى ولدت على ضفافه حضارات العالم القديم جميعاً ، واتصلت بعضها ببعض عن طريقه ، والذى كان الوسيلة التى انتقلت عن طريقها الأفكار والمتاجر فيما بين أرجائه ، والذى كانت الإمبراطورية الرومانية قد ضمت أطرافه جميعاً ، والذى اتجه نحوه نشاط ولاياتها جميعاً من بريطانيا إلى الفرات ، لم يتوقف بعد الغزوات الجرمانية عن القيام بدوره التقليدى ، وظل ــ عند المتبربرين الذين استقروا فى إيطاليا

---

(١) نفس المرجع ، ص ٩٠ .

وإفريقية وإسبانيا وغالة ــ طريق الاتصال الرئيسى مع الإمبراطورية البيزنطية . وسمحت العلاقات التى ظلت قائمة بينهم وبين هذه الإمبراطورية باستمرار الحياة الاقتصادية التى لم تكن إلا استمراراً مباشراً لما كان الحال عليه فى العصور القديمة . ويكفى أن نذكر هنا النشاط البحرى السورى الذى ظل قائما فيما بين القرنين الخامس والثامن بين ثغور حوض البحر الأبيض الغربى وثغور مصر وآسيا الصغرى ، واحتفاظ ملوك الجرمان بالصولدى الرومانى وهو يعتبر أداة الوحدة الاقتصادية لهذا البحر ورمزها القائم ، ويكفى كذلك أن نذكر اتجاه التجارة العام نحو شواطىء هذا البحر الذى ظل الناس يتحدثون عنه بقولهم : « بحرنا Mare nostrum » وحقهم فى ذلك القول لا يقل عن حق الرومانية فيه »[1] .

جـ ــ الناحية الثقافية للبحر الأبيض قبل الإسلام :

وهذا الكلام يصدق عن الثقافة التى سادت شواطىء هذا البحر بعد استقرار الجرمان فى مواطنهم فى وسط أوروبا وغربيها واقتصار الدولة البيزنطية على الولايات الشرقية من الإمبراطورية الرومانية القديمة . هنا أيضاً نجد أنفسنا فى جو فكرى لاتينى متجانس ؛ إنه ليس الجو السامق الذى عرفه الفكر اللاتينى على أيام شيسيرون وأوفيد وفرجيل ، ولكنه حطام ذلك الفكر بقى بعد طوفان الانحلال السياسى والفوضى الاقتصادية واختلال الأمور الذى شمل العالم الرومانى ابتداء من القرن الثالث الميلادى .

حقيقة أنه جد على الفكر والفن عامل جديد غير اتجاهه وروحه تغييراً حاسماً وهو المسيحية ، ولكن المفكرين وأهل الفن الذين حاولوا أن ينتجوا

---

(١) Henri Pirenne, Gustave Cohen et Henri Focillon: Histoire du Moyen-Age, t. VIII: La Civilisation Occidentale au Moyen-Age du XIE. au Milieu du XVE. Siécle, (Histoire Générale). Paris, 1933. pp. 7-8.

وسأكتفى فى الإشارة إلى هذا الكتاب بعبارة Civilisation Occidentale فيما يلى من هذا البحث .

شيئاً فى ذلك المحيط اللاتينى الجرمانى المسيحى الجديد نظروا إلى الأصول اللاتينية القديمة وحاولوا أن يصوغوا إنتاجهم فى قوالبها ، لقد تحقق فشل الفكر اللاتينى الوثنى فى القضاء على الفكر المسيحى الوليد عندما فشلت محاولة «يليان المرتد» فى إعادة الوثنية إلى الحياة ، ولكن هزيمة الوثنية لم يكن معناها هزيمة اللاتينية ، وإنما كان معناها اضطرار اللاتينية إلى أخذ الطابع المسيحى ووضع نفسها فى خدمته ، ومن هنا أخذت اللغة اللاتينية والفكر اللاتينى يتحولان إلى لغة مسيحية وفكر مسيحى ، بالضبط كما تحولت الدولة الرومانية بعد تجارب طويلة إلى دولة رومانية مسيحية أو مقدسة . بل إننا نلاحظ أن الكثيرين من رجال الفكر الأوروبى ـــ فيما بين القرنين الثالث والخامس ـــ يحاولون أن يطوعوا تفكيرهم الوثنى وبلاغتهم القديمة للدين الجديد ، فيوفقون أحياناً ويخطئهم التوفيق أحياناً أخرى ؛ ويكفى أن نذكر أسماء كلوديوس وسيدونيوس أبوليناريوس وفلافيوس ميروباودوس Merobaudus وغيرهم[1] .

وعندما نتأمل قصور ملوك جرمان ـــ من أمثال ثيودوريك وكلوفيس ـــ نجدها محاكاة لقصور أباطرة الرومان وحواشيهم ، ونجد كتابهم ومؤديهم ورجال دولتهم لاتيناً أو ناسجين على المنوال اللاتينى ؛ لأن الجرمان لم يأتوا معهم بفكر أو فن ، فلم يكن لهم مفر من أن يتزودوا فى ذلك الميدان بما بقى من عناصر الفكر والفن اللاتينيين الذاهبين ، لا يكاد يشذ عن ذلك إلا الأنجلو سكسون ، ولفترة قصيرة من الزمن مع ذلك[2] . وأظهر مثال لهذا بلاط ثيودوريك ملك القوط الشرقيين فى إيطاليا ، حيث نجد رجالا ذوى فكر لاتينى خالص ـــ من أمثال بويثيوس Boethius وكاسيودوروس Cassiodorus ـــ يضعون للدولة الجرمانية الناشئة أصولا فى

---

(١) يذكر إيبرت أن هؤلاء الأدباء لم يكونوا مسيحيين إلا اسما : Cf.: Ebert: Hist. de la litterature latine du Moyen-Age. t. I, p. 445.

(٢) H. Pirenne: Mahomet et Charlemagne, p. 102.

الإنشاء والتفكير مستقاة من البلاغة اللاتينية فى عصرها الفضى ، ونجد شعراء من أمثال إلبيديوس Elpidius الذى كتب مدحة للمسيح عنوانها Carmen de Christi Jesu Beneficii على غرار الشعر اللاتينى من كل ناحية . هذا وقد كانت مدارس البلاغة اللاتينية زاهرة إذ ذاك ، يتعلم فيها المسيحيون من أهل الدين وغيرهم أساليب الترسيل والإنشاء والتفكير على الأسس اللاتينية .

وهذا الكلام ينطبق على الممالك الجرمانية كلها ، يسود ميادين الفكر فيها الطابع اللاتينى ، بل إن من قصد إلى شىء من الكتابة من ملوك الجرمان مثل وامبا وسيسيبوت Sisibut وتشنداسفنت Chindaswinth وشنتيلا Chintila كتبوا باللاتينية ؛ وفى الطرف الأقصى الغربى لأوروبا نجد إيزودور الإشبيلى Isidiro de Sevilla يكتب بروح مسيحية فى لغة لاتينية بليغة[1] .

فإذا انتقلنا إلى الجزء الشرقى للعالم الرومانى ـــ العالم البيزنطى أقصد ـــ وجدنا الفكر المسيحى الوليد يسطر أيضاً فى آثار الفكر الوثنى القديم ، مع اختلاف فى القالب لا فى الطبيعة ؛ فقد كان الفكر قد ظل فى ذلك القسم الشرقى وثيق الصلة بالأصول الإغريقية القديمة ، وكانت الإغريقية هى اللغة التى كتب بها كتاب الدولة البيزنطية ، إذا استثنينا الفترة الجستنيانية التى أطلعت كتاباً من أهل ذلك العالم الإغريقى يكتبون باللاتينية ، من أمثال بروكوبيوس مؤرخ عصر جستنيان . وفيما خلا ذلك نجد الفكر البيزنطى ـــ حتى عصر هرقل ـــ يدرج على منهاج الإغريق القدماء .

ولقد حاول نفر من أوائل الكتاب البيزنطيين خلال القرن الرابع أن يبغض إلى الناس الفكر الوثنى وأساليبه ، ولكن هذه المحاولة لم تنجح كما حدث فى الغرب من تطويع التقاليد الفكرية اللاتينية للروح المسيحى

---

(١) يذهب مانيتيوس إلى أن القوط الغربيين كانوا أوفر من غيرهم نصيباً من الثقافة اللاتينية : Cf. Manitius: Geschichte der Christlichlateinischre Poesie p. 402.

الجديد . وفى نفس المدارس الوثنية التى تخرج فيها أعلام الفكر الوثنى قبل القرن الرابع المسيحى تعلم كتاب الكنيسة الشرقية فنون القول والمنطق والتفكير ــ بل اختلط الفكران الوثنى والمسيحى إلى درجة جعلت الكنيسة الشرقية تنظر إلى مفكر لاهوتى مثل أوريجانس المصرى نظرتها إلى وثنى أو منحرف عن الطريق السليم ، وذلك لغلبة الثقافة الإغريقية الوثنية على تفكيره .

وقد بدأت المصالحة بين الفكر الوثنى والروح المسيحى فى أيام قسطنطين الكبير ، ومن هنا «لم تختف طلاوة الفكر الإغريقى ونفاذه ، بل فتحا لنشاطهما ميداناً جديداً ، لقد انتقلت خصائص ذلك الفكر اليونانى من ميدان الفلسفة الوثنية إلى ميدان اللاهوت المسيحى ، وإلى هذا الميدان الجديد نقل مشاكله ومعاركه القديمة»[٢] . وفى كل ناحية من نواحى الإنتاج الفكرى البيزنطى ، نجد الصور القديمة نماذج يحتذيها الناس فيما يكتبون من أدب مسيحى ، والمسافة قريبة جداً بين زوزيموس Zosimus آخر أعلام المؤرخين الوثنيين وبروكوبيوس الكاتب المسيحى الذى تغنى بمدائح جستنيان حيناً وأسرف فى ذكر مساوئه حيناً آخر ..

«وفى مصر المسيحية نشأت «فلسفة» مسيحية تضرب على منهاج الوثنية القديمة هى فلسفة الرهبان المسيحيين . وأعظم الآثار الأدبية لهؤلاء الرهبان المصريين ــ وهو كتاب «حياة أنطونيوس» الذى ألفه الأنبا أثناسيوس المصرى ــ كان معتبراً أصلا من الأصول الثابتة التى تقرأ فى العالم المسيحى كله : فى لغته اليونانية فى الشرق وفى ترجمته اللاتينية فى الغرب ... وكانت «الأفلاطونية الحديثة» ذات أثر عظيم ظاهر فى كتابات جريجوريوس النازينزى وجريجوريوس النيسى أكبر كتاب الآباء القبدوكيين .. بل أصبح

---

(١) F.H. Marshall: Byzantine Literature apud Norman H. Baynes and H. St. L.B. Moss. Byzantium (Oxford, 1948) p. 222.

الفكر الأفلاطونى الحديث جزءاً من اللاهوت الأرثوذكسى فى الكنيسة الشرقية .. وهذا الطور ملحوظ لا يخفى فى كل فروع الأدب البيزنطى .. وإذا كانت المقطعات الشعرية الوثنية قد اختفت ، فقد حرص أصحاب المقطعات الشعرية المسيحية على النسج على منوالها» ، كما نرى فى التشابه العظيم بين شعر الشاعر الوثنى نونوس Nonnus الذى عاش فى القرن الخامس وشعر جورج البيزيد شاعر بلاط هرقل الكبير الذى تغنى بانتصاره على الفرس[١] .

بل إن الفكر السريانى الذى بلغ أوجه فى القرن السادس كان يحمل بوضوح طابع الفكر الإغريقى القديم ، ففى ذلك العصر نجم أعلام كتاب السريان من أمثال يعقوب السروجى وفيلوكسين المنبجى ويوحنا الإفيسوسى ويعقوب البردعى ، وكلهم كتاب سريان مسيحيون نهجوا فى تفكيرهم وإنشائهم على نهج قدماء الإغريق وفلاسفتهم[٢] . ولقد أطلعت سوريا إلى جانب هؤلاء نفراً من أعلام الفكر اليونانى المسيحى من أمثال بروكوبيوس الذى ذكرناه ــ وهو من قيصرية الشام ــ ويوحنا مالالاس ــ وهو أنطاكى ــ وبروكوبيوس الغزى ودوروتيوس وأناتوليوس القانونيين ، وهما من تلاميذ مدرسة بيروت (Beryta) ، هذا إلى ما نعرفه من أن مدارس الطب فى الرها وحران وأنطاكية كانت تقوم على ترجمات سريانية لمؤلفات أطباء الإغريق[٣] .

وقد أجمل هنرى بيرين ما قلناه عن الثقافة فى غربى أوروبا بعد الغزوات الجرمانية بقوله : «.. وعلى الجملة فإن الغزوات (الجرمانية) لم تغير طابع الحياة الثقافية فى الحوض الغربى للبحر الأبيض ، فمضى الأدب فى طريقه ،

---

(١) F.H. Marshall, op cit. pp. 224-225.

(٢) A.A. Vasiliev: Histoire de l'Empire Byzantin, (Paris, 1932), Vol 1, p. 234-235.

(٣) Ch. Diehl et George Marcais: Le Monde Orientale de 395 à io8i (Paris 1944) p. 115.

وإذا كنا لا نملك أن نقول إنه كان زاهراً فإننا نستطيع أن نقول إنه ظل فى قيد الوجود فى روما ونابلى وقرطاجنة وطليطلة وغالة ، دون أن يجد عليه جديد ، حتى جاء ذلك الحين الذى بدأت تظهر آثار الأنجلو سكسون فيه . وليس هناك شك فى أن اضمحلاله كان ظاهراً ، ولكن تقاليده ظلت قائمة . وإذا كان هناك كتاب لاتينى وجدوا فإن هذا دليل على أنه كان هناك أيضاً جمهور يقرأ ما كانوا يكتبون ، أى جمهور متعلم نسبياً (يقرأ اللاتينية) . وقد مضى الشعراء يخلعون على ملوك الجرمان نفس الأوصاف المبالغ فيها التى كانوا يضفونها على الأباطرة ؛ نعم إنهم كانوا أقل مستوى ، إلا أنهم كانوا يكررون نفس المعانى . ولقد استمرت هذه الحياة الفكرية القديمة قائمة حتى القرن السابع الميلادى ، بدليل أننا نجد البابا جريجورى الكبير يلوم ديدييه Didier على انصرافه إلى النحو دون سواه ، وأننا نلقى فى إسبانيا مؤرخين لا بأس بهم حتى الفتح العربى . وفى ذلك الميدان كله لم يأت الجرمان بأى جديد»[1] .

وهذا الذى يقوله بيرين عن الحياة الثقافية فى غرب البحر الأبيض ينطبق ــ مع خلاف طفيف ــ على حوضه الشرقى كما رأينا : استمرت الحياة الفكرية فى القسطنطينية وآسيا الصغرى والشام ومصر والمغرب فى نفس الاتجاه الذى كانت تسير فيه قبل انتشار المسيحية ، بحيث نستطيع أن نقول إن حوض البحر الأبيض كله كانت تسوده قبيل الفتح الإسلامى ثقافة إغريقية لاتينية غلب عليها الروح المسيحى دون أن يتغير روحها العام كثيراً .

---

(١) H. Pirenne: Mahomet et Charlenagne, p. 106.